الاستفهام البلاغي في اللغات السامية

المدرس المساعد صباح جاسم حمادي
كلية التربية - ابن رشد

المقدمة:

إن النفي عند البلاغيين يتمثل بأحلى صورة في الاستفهام الذي هو في الأصل طلب العلم بشيء يجهله السائل وهذا يدعى بالاستفهام الحقيقي [١] ، أما الاستفهام البلاغي فهو ذلك الاستفهام الذي لا يراد به إجابة ما ، وإنما يراد به التعبير عن نفس القائل تعبيراً مؤثراً فصيحاً عن أغراض معينة مثل النفي أو التقرير أو التأنيب أو الاستنباط أو الاستبعاد وغيرها [٢] .

في اللغة العربية :

من المعلوم أن الاستفهام الحقيقي والبلاغي قد يتداخلان عند الاستخدام أو يمتزج أحدهما بالآخر ، فالرجل الذي يقول : ألا من يشتري سهراً بنوم ؟ يود فعلاً لو أغمضت عيناه ولو على حساب غيره ولكنه إذ يقول هذا المثل إنما يعبر عن النفي وعن التعب والتحسر؛ وكذلك في الاستفهام القرآني [٣]، كقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ**﴾ [٤].

أي لا أحد أظلم منه فهو استفهام خرج من معناه الحقيقي إلى معنى بلاغي هو النفي، والملاحظ أن التعبير (ومن ظلم؟) في القرآن إنما ورد خمس عشرة مرة كلها تفيد النفي وليست استفهاماً حقيقياً، وقد تحدث النحاة العرب عن علاقة الاستفهام بالنفي حيث قالوا: أن فاء السببية تنصب بعدها الفعل إذا كانت جواباً لأحد ثمانية: الأمر والنهي والاستفهام والنفي والعرض والتمني والتحضيض والدعاء [٥] ، وكذلك قالوا أن بعض الأدوات تشترك في

دلالاتها على النفي أو الاستفهام [٦] ، كقوله تعالى : ﴿ **مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [٧].

ففي (ما) وجهان : نافية واستفهام [٨] ، وقد أفرد سيبويه باباً اسماه: "باب حروف أجريت مجرى حروف الاستفهام وحروف الأمر والنهي" وهي حروف النفي وشبهوها بألف الاستفهام [٩] ، حيث أنها أوسع من أدوات الاستفهام استعمالاً للدلالة على النفي ، فهي تفيد الإنكار كما قرر القدماء والمحدثون وترد لثمانية معان بلاغية لايرد لمثلها أية أداة استفهامية أخرى من أجل ذلك وغيره قيل أنها أصل أدوات الاستفهام [١٠] ، إذن حروف الاستفهام قد تكون للنفي مرة أو للاستفهام مرة أخرى ، وأن الأسلوب الاستفهامي كلاً يخرج عن معناه الحقيقي إلى معنى النفي، والسؤال إذن لماذا يتميز النفي الاستفهامي بالبلاغة دون النفي الخبري ؟ الإجابة تشتمل على النقاط التالية :

١- أنه أقوى في دلالته النفسية من النفي الخبري حيث أن النفي الاستفهامي وطيد الصلة بمشاعر المتحدث لا يصدر منه استنكاراً إلا بعد أن يكون بلغ به الضيق مبلغاً [١١] .

٢- النفي الاستفهامي إنما يكون لمطلق النفي كقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً** ﴾ [١٢] ، ففي هذا الاستفهام البلاغي تكون الإجابة : لا أحد .

٣- النفي الاستفهامي مزيج من عدة معان : نفي وتعجب وتهكم وتمن وليس شرط أن يتوافر في كل أسلوب هذه المعاني فقد تكون كلها أو يزيد عليها أو تنقص أما في الخبر فالنفي ليس غير [١٣] ، كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [١٤] ، فالنفي في التمني إنما يفهم ضمناً في الغالب كما هو الشأن في (ليت) و(لو).

٤- النفي الاستفهامي يحمل الذهن على التفكير، حيث لايكون صريحاً إنما يفهم ضمناً تعالى: ﴿ **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾ (١٥) ، فالإجابة : لا .

٥- النفي الاستفهامي يستهدف الحث والحض على عمل ما ، على النفي الخبري غالباً ، كقوله تعالى:﴿**أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ (١٦).

كما أن هناك صورة أخرى يتجلى فيها النفي البلاغي كما هو الحال في بعض الأساليب الخبرية المتمثلة بالتهكم حيث يدل على النفي تعبيراً عن الاستنكار كقول الحطيئة يهجو الزبرقان :

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ونعرف أنه لم يجد منه كرماً وحسن ضيافة فندرك معنى التهكم في تعبيره أي أنه يعني ضد ما يقول أي أنه ليس بالطاعم (أي المطعم) ولا بالكاسي .

في اللغة العبرية :

وكذلك هو الحال في اللغة العبرية حيث تستخدم (הֲ) الهاء أداة للإستفهام المباشر وتتصدر هذه الأداة الجمل الاستفهامية (١٧) ، وفي حالات أخرى تستخدم هذه الأداة مع الاسئلة التي تشير من خلال معنى مضمونها ونغمتها بأن الإجابة المتوقعة عنها منفية نحو :

הֲרִאישׁוֹן אָדָם תִּוָּלֵד .

أولدت أنت أول البشر . (أيوب ١٥: ٧)

اسئلة مثل هذه تستخدم في بعض الأحيان كصيغة بلاغية فقط بدلاً عن النفي المؤكد القاطع أو عن الاستغراب أو الرفض الانتقامي (الساخط) أما الاستفهام المنفي فإن الأداة المستخدمة معه هي הֲלוֹא ، نحو :

הֲלוֹא נֶגֶד עֵינֵינוּ אֹכֶל נִכְרָת מִבֵּית אֱלֹהֵינוּ שִׂמְחָה וָגִיל

أما انقطع الطعام أمام عيوننا ؟ أما زال الفرح والابتهاج من بيت الهنا .

(يوئيل ١ : ١٦)

❖מִי : (١٨)

تستخدم هذه الأداة مع العبارات الاستفهامية التعجبية وتسبق هذه الأداة غير التام عندما يبدو كصيغة لشيء لم يتحقق بعد ولكنه ممكن التحقق أو لشيء مرغوب فيه ، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن استخدام هذه الأداة مع صيغة التام أو مع صيغة اسم الفاعل تعبر بالأحرى عن الاستفهام البلاغي- وهذا يعني – النفي أو الانكار – نحو :

מִי הֶאֱמִין לִשְׁמֻעָתֵנוּ וּזרוֹעַ יְהוָה עַל מִי נִגְלָתָה .

من صدق ما سمعنا به ؟ ولمن تجلت ذراع الرب ؟

כִּי פִתְאֹם יָקוּם אֵידָךְ ופִיר שַׁנַּיִהֶם מיוּדָע .

فمنهم بغتة تأتي النكبة ومن يعلم أي هلاك يسببون ؟

كذلك يمكن استخدام هذه الأداة [١٩] ، מִי في صيغة تشبه عمل מִי יִתֵּן في العبرية التوراتية مثل :

מִי יְגַלֶּה עֵינֶיךָ أمن يزيل غبار عينيك (So. V. 2)

מִי יִתֵּן לִי חָרִיץ זֶה اهناك من يعطيني هذه الشريحة (Meg. 149)

كما تستخدم أيضاً الصيغة (יְהִי רָצוֹן שֶׁ) مثل :

יְהִי רָצוֹן שֶׁתֵּלֵד אִשְׁתִּי זָכָר !

قد يشاء الله أن تلد امرأتي صبياً (Ber. Ix. 3)

أما في الإكادة فإنها تظهر بالصيغة **הלואי** = (**לא** عبرية توارتية) ، هنا استخدمت هاء الاستفهام ، نحو :

הַלְוַאי יְהֵא חֶלְקִי בָּאָרֶץ הַזאת !

أيكون نصيبي في هذه الأرض . (Gen. R. 34)

❖ מָה [٢٠] :

وهي أداة استفهام خالصة ولكنها تستخدم أحياناً مثل الأداة (ما) في العربية، وينشأ عن ذلك توظيف نادر لها وهو استخدامها في الاستفهام البلاغي نحو :

מַה לָּנוּ חֵלֶק בְּדָוִד וְלא נַחֲלָה בְּבֶן יִשַׁי .

مالنا ولبيت داؤد وما علاقتنا بابن يَسّى ؟. (الملوك الأول ١٢: ١٦)

وهي بذلك توازي دلالة **אין** في هذا المثال ..

אֵין לָנוּ חֵלֶק בְּדָוִד

لا نصيب لنا مع داؤد . (صموئيل الثاني ٢٠: ١)

وتوازي أيضاً استخدام **לא** للدلالة على النفي [٢١] كما في المثال التالي:

אִם אֲדַבֵּרָה לֹא יֵחָשֵׂךְ כְּאֵבִי וְאִם חָדַלְתִּי מַה מִּנִּי יֵהָלֵךְ

الآن أن تكلمت لا تزول كآبتي أو تمنعت لا تذهب عني . (أيوب ١٦: ٦)

הִשְׁבַּעְתִּי אֶתְכֶם בְּנוֹת יְרוּשָׁלִַם בִּצְבָאוֹת אוֹ בְאַיְלוֹת הַשָּׂדֶה אִם־תָּעִירוּ

استحلفكن يا بنات اورشليم بظباء ووعول البرية بأن لا توقظن حبيبتي .

(نشيد الأنشاد ٢: ٧)

لاحظ أنها وردت أيضاً :

הִשְׁבַּעְתִּי אֶתְכֶם בְּנוֹת יְרוּשָׁלִַם מָה תָּעִירוּ וּמָה עֹתִירוּ אֶת הָאַהֲבָה .

استحلفكن يا بنات اورشليم ألا توقظن حبيبتي ولا تنبهنها .

(نشيد الانشاد ٨: ٤)

في اللغة السريانية :

أما في اللغة السريانية فأن أداة الاستفهام هي كما في سائر اللغات الأخرى لها التقدم على كل ألأجزاء الجملة وليس عند السريان أداة معلومة للاستفهام عن الحقيقة كما عند العرب (الهمزة، هل) [٢٢] ، فيتركون الجملة بلا أداة فيفهم الاستفهام من القرائن نحو :

ܗܳܟܢܳܐ ܟܰܕ ܐܰܚܨܰܬܟܘܢ ܒܠܰܚܘܕܝ ܚܨܰܪ . أهكذا ما قدرتم أن سهروا معي ؟.

ܟܰܕ ܗܘܳܐ ܕܢ ܝܰܘܣܦ . أليس هذا هو ابن يوسف .

إلا أن الكتاب للدلالة على الاستفهام عن الحقيقة يستعملون أدوات شتى لم توضع في الأصل للاستفهام ومن هذه الأدوات أداة "ܟܳ ي للا التي تستخدم مع الاسئلة التي تشير من خلال معنى مضمونها رغبتها بأن الإجابة المتوقعة عنها منفية ، اسئلة مثل هذه تستخدم في بعض الأحيان لصيغة بلاغية فقط بدلاً من النفي المؤكد : القاطع [٢٣] نحو :

ܟܰ ܫܡܰܥܬ . أما سمعت .

وإذا كان الاستفهام عن الحقيقة منفياً بمعنى الإثبات يستعمل له للا وَوَا كما في الأمثلة الواردة نحو [٢٤] :

ܟܰ ܗܘܳܐ ܐܰܟܘܳܗ ܒܪܳܐ ܟܠ ܫܰܝ . أليس الله خلق كل شيء ؟ .

في اللغة الأكدية :

وأخيراً نجد أن اللغة الأكدية تستخدم أدوات الاستفهام في الجملة الاستفهامية الأسمية أو الفعلية غالباً في البداية ، ولكن عند دخول أداة النفي على أداة الاستفهام أو على الجملة الاستفهامية تحدث تغيرات منها :

في الجمل التي يصادف وجود أدوات استفهام فيها مثل (mannum من، minum من (مفعولية) ، ayyum أي) فأن أداة النفي uL تستبدل بأداة النفي la نحو [٢٥] : am minim markunu ana mahrisu La tatruda لماذا لم ترسل ابنك إليه / لماذا أنت لا ترسل ابنك إليه .

وكذلك تحدث تغيرات على شكل أدوات الاستفهام عند استخدامها مع النفي وتكون أما بتضعيف أساس الأدوات تلك أو بإضافة الأداة ma إلى أساس تلك الأدوات نحو :

ولا واحد ذهب mam man uL illk

ولا رأيت أحداً mam man uL amur

لم أشاهد أي أحد

الاستنتاجات

ومما تقدم خلص البحث إلى جملة من الاستنتاجات وهي كالآتي :

١- الاستخدام الدلالي لأداة الاستفهام (ما ، מה) في العربية والعبرية كأداة نفي في الجمل الأسمية أولاً ثم استخدمت بعد ذلك في الجمل الدالة على التحريم والحظر علاوة على استخدامها في الاستفهام البلاغي الذي هو أحد أنواع النفي غير المباشر، مثل العبرية מה בידי רעה (١صاموئيل ٢٦: ١٨) ، وفي العربية، قوله تعالى : **((ما هن بأمهاتهم))** (٨٦: ٢) .

٢- التشابه في التنوع الدلالي لأدوات النفي اللغوي في اللغات السامية موضوع البحث، وخصوصاً تلك الأدوات المستخدمة في اللغة العبرية واللغة العربية فيما يتعلق بترتيبها في بناء الجملة المنفية سواء أكانت الجملة الفعلية المنفية أو الجملة الأسمية المنفية، ولا بد من الإشارة إلى حتمية وجود اختلافات في ذلك الاستخدام هنا أو هناك إلا أنها ليست ذات شأن في التأثير على ذلك التنوع الوظيفي للسمات الدلالية التي تخص كل أداة للنفي في هذه اللغات سواء تلك الأدوات التي استخدمت في النفي المباشر أو تلك الأدوات التي استخدمت في النفي غير المباشر بشقيه النفي الضمني والاستفهام البلاغي .

٣- تميز اللغة العبرية بأصولها المختلفة والتي ضمت (عبرية التوراة، عبرية المشنا، العبرية الوسيطة ، العبرية الحديثة) واللغة العربية في كثرة أدوات النفي المستخدمة للنفي المباشر والنفي غير المباشر ، الأنفراد في الكثير من الأدوات الأخرى المستخدمة حصراً للنفي الضمني أو البلاغي .

المصادر

المصادر العربية:

- القرآن الكريم
١-ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله ، شرح ابن عقيل ، دار الكتاب العربي ، ط١٤، بيروت- لبنان، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م .
٢-ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن الكريم، ط١، الحلبي، ج٢.
٣-ابن هشام، أبي محمد عبد الله جمال الدين الأنصاري (ت٧٦١هـ) ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق: محمد محيي الدين، القاهرة، ١٩٦٦.
٤-أحمد بن فارس الصحابي في فقه اللغة ، مصر ، ١٩١٠م .
٥-الأزهري ، خالد بن عبد الله ، شرح التصريح على التوضيح، القاهرة ، ١٩٧٩.
٦-تفسير الرازي.
٧- السكاكي، أبو يعقوب يوسف أبي بكر، مفتاح العلوم، ط التقدم العلمية، مصر، ١٩٦٣.
٨-سيبويه، أبو بشر عمر بن عثمان، الكتاب، القاهرة، ١٨٩٨م .
٩-المالقي، وصف المباني في شرح حروف المعاني ، القاهرة، ١٩٧٥م .
١٠- المرادي، الحسن بن القاسم ، الجنى الداني في حروف المعاني ، بيروت، ١٩٨٣.
١١- الموصلي ، اقليمس داود ، اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية ، الموصل، ١٨٧٩.

المصادر الأجنبية :

1- KAUTSCH. E. Grammitik des Biblisch. Aramaischen Leipzig, 1884.
2- Poepel, Arno: Studies in Akkadian Grammar. Chicago, 1939 .
3- Segal. M. H. Agrammarol mishnaic ldebrew, oxford, 1980.
4- Williams, Ronald, J: Hebrew Syntax An out line. Canada, 1978.

الهوامش

(١) السكاكي، أبو يعقوب يوسف أبي بكر، مفتاح العلوم ، ط التقدم العلمية ، مصر، ١٩٦٣، ص١٣٣ .
(٢) تفسير الرازي ، ص١٣٤ .
(٣) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ، تفسير القرآن الكريم، ط١ ، الحلبي، ج٢، ص١٣٠.
(٤) سورة السجدة : ٢٢ .
(٥) المالقي، وصف المباني في شرح حروف المعاني ، القاهرة، ١٩٧٥م ، ص١٤٢ .
(٦) ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله ، شرح ابن عقيل ، دار الكتاب العربي ، ط١٤، بيروت- لبنان، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م ، ص٧٣ .
(٧) سورة الأعراف : ٤٨ . أنظر أيضاً: أحمد بن فارس الصحابي في فقه اللغة ، مصر، ١٩١٠م، ص٥٢١ .
(٨) الأزهري ، خالد بن عبد الله ، شرح التصريح على التوضيح، القاهرة ، ١٩٧٩، ج١، ص٢٨٩ .
(٩) سيبويه، أبو بشر عمر بن عثمان، الكتاب، القاهرة، ١٨٩٨م، ج١، ص٧٢ .
(١٠) ابن هشام، أبي محمد عبد الله جمال الدين الأنصاري (ت٧٦١هـ) ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق: محمد محيي الدين، القاهرة، ١٩٦٦، ج١، ص١٤ .
(١١) ابن كثير ، التفسير ، ج٢، ص١٣٠ .
(١٢) سورة النساء : ١٢٢
(١٣) المرادي، الحسن بن القاسم ، الجنى الداني في حروف المعاني ، بيروت، ١٩٨٣، ص٥٢.
(١٤) سورة غافر : ١١ .
(١٥) سورة الزخرف : ٢ .
(١٦) سورة يونس : ٩٩ .

KAUTSCH. E. Grammitik des Biblisch. Aramaischen) 17(Leipzig, 1884, P. 476-478 .

(18) Ibid, P

(19) Segal. M. H. Agrammarol mishnaic ldebrew, oxford, 1980, P. 155.

(20) KAUTZSCH. E: Op. Cit., P. 113, 471 ; Williams, Ronald, J: Hebrew Syntax An out line. Canada, 1978, P. 70.

(21) KAUTZSCH. E: Op. Cit., P. 471-478.

(٢٢) اعلم أن اللغات التي لها أداة خصوصية للاستفهام كما في العربية هي قليلة ومن جملتها اليونانية واللاتينية. وأما اللغات الشائعة اليوم في أوربا . فليس جميعاً أداة استفهام أصلية.

(٢٣) الموصلي ، اقليمس داود ، اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية ، الموصل، ١٨٧٩، ص٦٣٧-٦٣٨ .

(٢٤) الموصلي ، اقليمس ، مصدر سابق ، ص٦٤ .

(25) Poepel, Arno: Studies in Akkadian Grammar. Chicago, 1939, P. 234-240.